المنظومة
ALMANDUMAH

العنوان:	أصول فلسفة اللغة عند ابن حزم الظاهري
المصدر:	مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية
الناشر:	مركز جيل البحث العلمي
المؤلف الرئيسي:	سعد، عبدالسلام
المجلد/العدد:	ع28
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2017
الشهر:	فبراير
الصفحات:	25 - 42
DOI:	10.33685/1316-000-028-002
رقم MD:	800493
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	الفكر الإسلامي، ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، ت. 456 هـ، فلسفة اللغة، التحليل اللغوي، علم البيان
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/800493

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

سعد، عبدالسلام. (2017). أصول فلسفة اللغة عند ابن حزم الظاهري.مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع28، 25 - 42. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/800493

إسلوب MLA

سعد، عبدالسلام. "أصول فلسفة اللغة عند ابن حزم الظاهري."مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية ع28 (2017): 25 - 42. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/800493

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

أصول فلسفة اللغة عند ابن حزم الظاهري

د.عبد السلام سعد/جامعة زيان عاشور الجلفة

ملخص:

اهتمت الدراسات الإنسانية الحديثة بمسألة اللغة وبأصولها ووظيفتها وأساليب تطويرها؛ ونظراً لما للُّغة من تأثير بالغ على الإتجاه الفكري للفلاسفة والمفكرين والباحثين، فقد تمحور هذا البحث حول الأسس التي قامت عليها فلسفة اللغة عند الفيلسوف:"ابن حزم الظاهري الأندلسي"(ت.٤٥٦هـ ١٠٦٣م) حيث كان اعتناؤه باللغة بالغا، إذ أحلها مكانة رئيسية من مجال اهتمامه، خاصة أنه ظاهري الفكر والمنهج، يُلزمه مذهبه الظاهري الإعتناء باللّغة، لكونها الوسيلة الأولى لفهم النصوص وإدراك المعاني على اعتبار أن النص له دلالة ظاهرة، يفهمها كل فرد حتى الإنسان ذو اللغة البسيطة، والتحليل اللغوي عند ابن حزم يرتكز على البيان، لأنه السبيل الوحيد للاتفاق بين جميع الناس في نظره.

الكلمات المفتاحية:اللغة، التحليل اللغوي، دلالة النص، فلسفة اللغة، الإصطلاح والتواضع، الدّال، المدلول، البيان، التواصل، التخاطب التأويل، الظاهر، النص، اللفظ، المعنى.

تمهيد :

إن للُّغة أهمية بالغة في حياة الإنسان، لكونها ظاهرة إنسانية عامة تمكّن الإنسان من ترجمة أفكاره ونقْلها للغير عن طريق

الألفاظ والعبارات، وتيسّر له سبل التواصل معهم. وقد كان« للأندلسيين على عهد ابن حزم عناية خاصة باللغة وعلومها ... فذلك مع علم الشريعة أساس شائع للثقافة العامة في ذالك العصر.»[1] ولذا فقد اهتم الفقيه الأصولي، والأديب الفيلسوف واللغوي الظاهري: أبو محمد علي بن حزم(٣٨٤هـ-٤٥٦هـ/٩٩٤م-١٠٦٤م) بمسائل اللغة والنحو والبيان. ولعلّ مَن يطّلع على تفكيره الأدبي في سعة أفقه وثاقب ذهنه، لَا يستغرب اهتمامه بالجانب اللغوي، ومحاولته بناء نسقه الظاهري على دلَالَات التراكيب اللغوية في ضوء خصائصه التركيبية. ومن المعروف أن معظم علماء اللغة العربية وعلماء البيان كانوا من كبار المتكلمين والفقهاء والأصوليين. فمن المعتزلة مثلًا نجد الجاحظ وأبا علي القالي، ومن الأشاعرة: أبو هلال العسكري، وعبد القادر الجرجاني، ومن السلفيّة: ابن قتيبة، كما نجد من الفقهاء الأصوليين: الشافعي وغيرهم كثير؛ ولهذا تمّ الاهتمام باللغة من خلال مراعاة المعتقدات الدينية والأحكام الفقهية، والقواعد الأصولية والمسائل الكلامية والأبحاث المنطقية. فالصلة وثيقة عميقة، بين التحليل اللغوي للعالم أو الفيلسوف، وبين اتجاهاته الفكريّة الأخرى؛ ولا غرابة في أن يتأثر اللغويون بمعتقداتهم وآرائهم العلمية الفكرية في توجيه التراكيب اللغوية والنحوية، وتوجيهها توجيها عقديّا، لتعكس بعدئذ

[1]- سعيد الأفغاني : "نظرات في اللغة عند ابن حزم الأندلسي" دار الفكر، بيروت ، ط.٢، ١٩٦٩م. (ص.٩).

معتقدات القائمين بالتحليل اللغوي. ولعلنا نطرح بعض الإشكاليات: لماذا اهتم ابن حزم باللغة ؟ وما أثر اتجاهه ومنهجه الظاهري على فكره اللغوي وعلى نظريته اللغوية ؟ وما أبرز المسائل التي قامت عليها فلسفة اللغة عنده ؟.

إن اللغة في مذهب ابن حزم، أداةٌ لتوضيح وتبسيط وتسهيل المعاني، وتيسيرها على البشر لبلوغ أغراضهم؛ أما في العلم فاتخاذها وسيلة لإيضاح وتقريب المعاني، وبيان الأفكار والنظريات، ولهذا« تكاد تُجْمِعُ الكلمةُ على أنّ أجمل لغة كُتبَت من حيث الوضوح والإشراق هي لغة ابن حزم.» [1] ثم إن طبيعة المذهب الظاهري تقتضي على معتنقيه، ومنهم أبو محمد -ابن حزم- أن يُولُوا اللغة ومدلولَات الألفاظ المقامَ الأول من العناية، لأن بناء المذهب الظاهري كان على هذه الدلَالَات؛ بل إنه كان ردَّ فعلٍ على الشطط والغلوّ الذي ارتكبه البعض، ممن تهاونوا بنصوص الشريعة فَساقهم القياس والمجاز والتأويل وغير ذلك من المسوّغات إلى خلَاف مراد هذه النصوص؛ حيث تأوّلوها وأخرجوها عما وضِعت له، سواء كان ذلك في العقائد أو الفقه، أو في غيرهما من العلوم والمعارف. فقام المذهب الظاهري ليرُدّ لكل حرف، بل ولكل كلمة من هذه النصوص اعتباره الكامل والحقيقي، وليَقِف عنده لا يتعدّاه يمنة ولَا يسرة.[2] رافضا أن يتعدّ حدوده، لأن في ذلك تَعَدٍّ على حدود الله، ولهذا أرجع أبو محمد كثيرا من الإختلَافات الفكرية إلى اختلَافات لفظية واصطلَاحية، أي أنها تعود في نظره إلى ما لم يُضبط لغويا.« والأصل في كل بلَاء وعماءٍ وتخليطٍ وفساد، إختلاطُ الأسماء ووقوعُ إسم واحد على معانٍ كثيرة، فيخبرُ المخبرُ بذلك الإسمِ وهو يريد أحد المعاني التي تحته؛ فيحمله السامع على غير ذلك المعنى الذي أراد المُخبِر، فيقع البلاء والإشكال، وهذا في الشريعة أضرَّ شيء وأشدّه هلاكا. »[3] ولأن ذلك سيؤدي إلى أن يعتقد الشخصُ الباطلَ متوهماً أنه حقٌّ، فكان من الضروري أن يهتمّ ابن حزم باللغة لإزالة ذلك اللُّبس والغموض.« فلْيُعلَمْ أننا إنما ننظر المعاني بألفاظ متّفق عليها لتكون قاضية على ما يغمض فهمُه مما ليس من نوعها.»[4]

ولهذا تطرح نصوصه وآثاره جملة من الإشكاليات اللغوية، عن ماهية اللغة وأصل نشأتها ووجودها، وما يتصل بعلاقة اللفظ بالمعنى، إضافة إلى أقسام الألفاظ وأنواعها، ومسائل أخرى لَا يتسع المقام لحصرها. ولأنّ البيان هو الذي فُضِّل به الإنسان على سائر الحيوان[5] فلَا عجب أنْ يكون الإهتمام بالغا به، فبواسطته تُعرف حركات الكلمات، وباختلاف الحركات تختلف المعاني.« ولهذا وضعَ العلماء كتب النحو فرفعوا إشكالا عظيما، وكان ذلك مُعينا على الفهم لكلام الله عز وجل وكلام نبيه ε وكان مَن جَهِل ذلك ناقصُ الفهْم عن ربه تعالى.» [6] ولذلك حاول أبو محمد بيان وإحصاء العلوم الأصيلة، مؤكدا على ضرورة تعلُّمها؛ فعَدَّ منها: اللغة والنحو، معتبراً أنهما فرض واجب على الكفاية.« فمَن لم يعلم النحو واللغة لم يعلم اللسان الذي به بيّن الله لنا ديننا وخاطبنا به... ومن لم يعلم ذلك لم يعلم دينه، ومن لم يعلم دينه ففرضٌ عليه أن يتعلمه وفرضٌ عليه واجبٌ تعلّمُ النحو واللغة، ولو سقط علم النحو لسقط فهْمُ القرآن وفهْمُ حديث النبي، ولو سقطَ

---

[1])– نفسه. (ص.٣٨ – ٤١).

[2])– نفسه. (ص.٣١).

[3])– ابن حزم : "الإحكام في أصول الأحكام" تحقيق: محمد محمد تامر، دار الكتب العلمية، بيروت ،ط.١، ٢٠٠٤م (٦٠٣/٢).

[4])– ابن حزم:"الرسائل" تحقيق: إحسان عباس ، نشر المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ط.٢، ١٩٨٧م (٢٨٤/٤).

[5])– البيان هو الذي امتن الله به على الإنسان وميزه عن جميع الموجودات ينظر ابن حزم:"الرسائل" (٩٤/٤–٩٥).

[6])– ابن حزم : "رسالة التقريب..." ضمن : "الرسائل" (٩٥/٤).

لسقطَ الإسلَام.»[1] وحرام أن يفتي أحد لَا عِلْم له باللسان العربي،« فمن لم يعلم اللسان الذي به خاطبنا الله عز وجلّ ولم يعرف اختلَاف المعاني فيه لِاختلَاف الحركات في ألفاظه، ثم أخبر عن الله بأوامره ونواهيه، فقد قال على الله ما لم يعلم.»[2]

أوّلاً: - اللغة: مفهومها ونشأتها

عرّف ابن حزم اللغة بقوله:« إنها ألفاظ يعبَّرُ بها عن المسمّيات وعن المعاني المراد إفهامها.»[3] أي أنها الألفاظ أو الكلمات الواقعة على مدلولَاتها لوجود ما يربط اللفظ[4] بالمعنى أو المسمّى، لأنه بحركته يتغير المعنى. كما ربط بين اللغة والنحو، لأن هذا الأخير يوجِّه حركات الألفاظ.« النحو هو معرفة تنقل هجاء اللفظ وتنقُّل حركاته الذي يدل كل ذلك على اختلاف المعاني... واللغة: ألفاظ يعبّر بها عن المعاني، فيقتضي من علم النحو، كل ما يتصرف في مخاطبات الناس وكتبهم المؤلفة، ويقتضي من اللغة المستعمل الكثير التصرف...» [5] فالكلمات والإشارات والرموز والحركات والخطوط، كلها تفضي إلى التعبير عن ما استكنّ في النفس، وبها يتخاطب الناس ويتواصلون، وكل ذلك يدل على معان ومدلولَات محددة.

وإذن فإن ذلك هو المحور الرئيس في العملية اللغوية من جهة، والفكرية من جهة أخرى، وعلى ذلك فكل وسيلة تؤدي غرض التواصل والتفاهم، سواء بإيقاع كلمات مؤلفات من حروف مقطّعات لها مخارج من الصدر والحلق واللسان أو غير ذلك من الأعضاء، فتُوصِل المتكلم بالسامع فيفهمه، ويستقرّ في نفس المخاطَب مثلُ ما استقر في نفس المتكلم؛ أو بإشارات متّفق عليها بالأصوات وحركات اليد، أو تخطيطاتٍ- أي خطوط ما- وتكون الآلة الموصلة لذلك إما العين أو اليد، أو إشارات من الأعضاء الأخرى كما يحصل مع الأعمى مثلًا[6] وكأني به يشير هنا إلى لغة الصمّ البكم. وباختصار فإنّ « لسان كل قوم هو هو لغتهم.»[7] أي أن اللغة هي ذلك اللسان الذي تعبّر به كل جماعة أو قوم عما يريدون التعبير عنه فيتخاطبون ويتواصلون ويتفاهمون بذلك اللسان. وهو ماذهب إليه أبو الفتح عثمان بن جني(ت.٣٩٢هـ) من أنّ« اللغة هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم.»[8] أي أنها لا تخرج عن كونها وسيلة للتعبير إما بالصوت أو الرمز أو الحركة والإشارة ونحو ذلك، مما يجعل المتخاطبين يتواصلون ويتفاهمون، وإن كان يشير في ذات السياق إلى أن مصدرها من "لغوت" أي تكلمت.[9] مستدلًّا بقوله تعالى:﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.[10]

---

١)- نفسه. (١٦٢/٣).

٢) ابن حزم:"الرسائل"(١٦٣/٣).

٣)- ابن حزم:"الإحكام"(٥٤/١-٥٥) و "الرسائل"(٤١١/٤).

٤)- "اللفظ هو كل ما حرك به اللسان." قال تعالى:"ما يلفظ من قول إلا لديْه رقيب عتيد" [سورة ق. الآية:١٨].وحده على الحقيقة أنه هواء مندفع من الشفتين...وهو الكلام نفسه." "الإحكام" (٥٥/١) و"الرسائل"(٤٠٩/٤).

٥)- ابن حزم:"رسالة مراتب العلوم"ضمن :"الرسائل "(٦٦/٤).

٦)- ابن حزم :"رسالة التقريب لحد المنطق" ضمن "الرسائل" (٩٦/٤-٩٧)

٧)- ابن حزم:"الفصْل في الملل والأهواء والنِّحل" تحقيق: يوسف البقاعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط.٢٠٠٢م (٣٧/٢)."ولكل أمة لغتهم قال الله تعالى:" وما أرسلنا مِنْ رَسُولٍ إلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لهُم" [سورة إبراهيم:الآية٤] ولا خلاف في أنه تعالى أراد اللغة." ابن حزم:"الإحكام" (٥٤/١-٥٥) و"الرسائل" (٤١١/٤).

٨)- ابن جني: "الخصائص" تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط.٣، ١٩٨٦م(٣٤/١).

٩)- نفسه.(٣٤/١).

١٠)- سورة الفرقان [الآية ٧٢].

وأما عن مسألة أصل ومنشإ اللغة، هذه المسألة القديمة التي تعاور على محاولة حلها الفلاسفة والعلماء وانصرف عدد كبير من الفلاسفة واللغويين للبحث عن أصلها، الأمر الذي كان له أثره البالغ حتى على الدراسات اللغوية والنفسية والإجتماعية الحديثة، التي صاغت نظريات مختلفة للبحث في نشأة اللغة. كما طرقها مفكروا الإسلَام، حيث ذهب قوم إلى أنها توقيف من الله، وجنح آخرون إلى مذاهب شتى.[1] في حين تأرجح موقف بعض الفقهاء والأصوليين والمتكلمين الذين بحثوا في هذه المسألة، وترددت آراؤهم بين التوقيف والإصطلَاح،كأبي علي القالي(ت.٢٧٩) والجويني(ت.٤٧٨ هـ) والرازي(ت.٦٠٦ هـ) والآمدي(ت.٦٣٣ هـ)[2] وذهب آخرون إلى أنها مواضعة واصطلاح ونماء. وممن ذهب إلى أنها توقيفيّة، وأنها وحيٌ وإلهام من الله، الفيلسوف اليوناني هيرقليطس(ت.٥٠٠.ق.م) الذي أشار إلى أن الأسماء تعطى من قوة إلهية لذا جاءت وقفا على المسميات؛[3] وهذا بخلاف الفيلسوف أرسطو(ت.٣٢٢.ق.م) الذي ذهب إلى أنها اصطلَاحية، اتفق الناس عليها من خلال تسميتهم ووصفهم للأشياء، وعلى حسَب تواضعهم بكونها كذا أو كذا، فالإصطلَاح والوضع أساس اللغة عنده.[4]

أما ابن حزم فأشار إلى هذه المسألة[5] منكرا أن تكون اللغة اصطلاحية في بدء وجودها، عارضا رأي القائلين بالوضع والإصطلَاح، ناقضا أقوالهم، مؤكّدا على أن الاصطلَاح على وضع لغة ما، يحتاج إلى قوم مكتملي الأذهان، لهم مستوى عال من المعرفة، تامّي العلم ذوي دربة عقلية، ويتميزون بكونهم وقَفوا على الأشياء كلها، الموجودة في العالم وعرفوا حدودها واتفاقها واختلَافها وطبائعها. متسائلًا كيف يتسنى لهؤلَاء الإحاطة علما بكل ذلك، لأن ذلك يتطلب منهم أن يكونوا قد تعلّموا، بل وحصّلوا على ثقافة عالية من دون لغة وهذا غير معقول. وثانيا لأن« الإصطلَاح يقتضي وقتا لم يكن موجودا قبله لأنه عمل المصطلحين... فكيف كان حال المصطلحين على وضع اللغة قبل اصطلاحهم عليه، فهذا من الممتنع المحال ضرورة. »[6] ثم إذا كانت اللغة موجودة، فما حاجتهم إذن لاستحداث لغة جديدة؟ إضافة إلى أنه يلزم المرء أن يتعايش مع غيره، ويتكلم معهم حال صغره حتى بلوغه سن التفكير، فكيف عاش هؤلاء ؟؟. « لأنه لَا سبيل إلى بقاء أحد من الناس ووجوده دون كلَام.»[7] ولو ثبت الإصطلَاح -جدلًا- لَافتقر إلى اصطلَاح آخر يتقدّمه ويسبقه، وهكذا يتسلسل إلى ما لَانهاية له.[8] ولهذا ولهذا فالقول بالإصطلَاح، تسلسلٌ إلى ما لَا نهاية يثير مشاكل لَا حصر لها، ومن ذلك اختلاف المصطلحين فيما بينهم على تسمية الأشياء، كل هذه الأدلة العقلية البرهانية الضرورية قدّمها ابن حزم لتفنيد وإبطال القول بالاصطلَاح. كما رفض أن تكون اللغة نشأت من الطبيعة، لأنه لو كان الأمر كذلك، لكان لكل جماعة من الناس على بقعة ما من الأرض لغة خاصة بهم، ولمَا كان بمقدور أهل كل بقعة أن يتفاهموا مع أهالي البقاع الأخرى تبعا لذلك، فهذا غير معقول؛ ولأن الواقع والتاريخ يثبتان وجود بقاع وأقطار مختلفة ومتباعدة لهم نفس اللغة، ثم إن الطبيعة لَا تفعل إلّا فعلا واحدا، لأنها تتسم بالجمود

---

[1])– سعيد الأفغاني : " نظرات في اللغة " (ص.٢٠–٢١).

[2])– حسن بشير صالح:"علاقة المنطق باللغة عند فلاسفة المسلمين" دار الوفاء، الإسكندرية،مصر، ط.٢٠٠٣م(ص.١١٣–١١٤).

[3])– علي عبد الواحد وافي :"علم اللغة " نهضة مصر، القاهرة، ط .١٩٩٧م (ص.٩٧) وكمال الحاج:"في فلسفة اللغة " دار النهار، بيروت، ط.١٩٦٧م(ص.١٨).

[4])– عبد الرحمن بدوي:"منطق أرسطو" (٣/٢٦٨–٢٧٠).

[5])– ابن حزم: "الإحكام".(١/٢٧) "باب : في كيفية ظهور اللغات أم عن توقيف أم عن اصطلاح" .

[6])– نفسه.(١/٢٧). في حين ذهب خصومه إلى أنه بالإمكان "أن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومة فيضعوا لكل واحد منها لفظا، إذا ذكر عُرف به مسماه ليتميز به عن غيره. " ابن جني: "الخصائص"(١/٤١–٤٥).

٧)– ابن حزم :"الإحكام في أصول الأحكام"(١/٢٧).

[8]) السيوطي: "المزهر في علوم اللغة" ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط.١٩٩١م (١/٢١).

والثبات، بل إنها تخضع للحتمية ولَا تتصرف باختيارها فأنّى لها أن تقوم بذلك. « الطبيعة لَا تفعل إلّا فعلًا واحدا لَا أفعالًا مختلفة، وتأليف الكلَام فعل اختياري متصرف ... وقد لجأ بعضهم إلى نوع من الاختلاط، وهو أن قال: إن الأماكن أوجبت بالطبع على ساكنيها النّطق بكل لغة نطقوا بها، وهذا محال ممتنع لأنه لو كانت اللغات على ماتوجبه طبائع الأمكنة لما أمكن وجود كل مكان إلا بلغتهم التي يوجبها طبعه، وهذا يرى بالعيان بطلانه... » [1]

وبعد أن انتهى من تفنيد كل الآراء، إستراح إلى القول بأنها من عند الله أي أنها توقيفية، والمراد بذلك أن الله عزوجل وقف آدم -عليه السلام- على كل اللغات وعلّمه إياها.[2] فاللسان واللغات والكلَام كل ذلك مخلوق من الله من دون شك، وإذا وإذا كان الكلَام والصوت واللغة والإنسان وكل شيء مخلوق من الله، فإنه تعالى قد رتّب كل ذلك على أن لَا يستحيل أبدا، ولَا يمكن تبدّله، ولَا تَصَرُّفَ له.[3] فالله خلق اللغة كما خلق سائر الأشياء والموجودات.« جميع الأشياء أحدثها الأول ... واخترعها الخالق الذي لَا خالق على الحقيقة إلّا إياه ...» [4] فالله خلق علما ضروريا وهو الأصوات والحروف، وقصد بها الدلَالة على المعاني﴿ وعلّم آدم الأسماء كلها﴾.[5]

لهذا تساءل أبو محمد عن السبب الذي دعا الناس إلى إتعاب أنفسهم ووضْع لغات،«... نعني أن الله تعالى وقف على جميع هذه اللغات المنطوق بها... ولَا ندري أي سبب دعا الناس ولهم لغة يتكلمون بها ويتفاهمون بها إلى إحداث لغة أخرى، وعظيم التعب في ذلك لغير معنى.»[6] وما ذلك إلّا لأن بناء اللغة وتركيبتها المعقدة ودقتها البالغة، لَا يمكن أن يكون ذلك وليد عقل بشري. كما أن اختلاف اللغات هو الآخر شكل من أشكال الإعجاز الإلهي، كاختلاف الجبال وألوان الناس وبصماتهم وألسنتهم ونحو ذلك، مما يتبين لنا معه أن الله تعالى يُعجز عباده عن الإتيان بمثلها.﴿ ومِن آيَاتِهِ خَلْقُ السَمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ ألسِنَتِكُم وَألوَانِكُم﴾[7] فالله تعالى خلق اللغة والأسماء والمعاني والكلَام، وجعل كل ذلك من وسائل التعبير، وعليه فالله شرط ضروري لوجود اللغة، كما هو أيضا كذلك لجميع المخلوقات والموجودات.« ومن هنا يحاول ابن حزم أن يعقلن هذا التفسير، فيبني جدلية النشأة اللغوية على استدلَال يفضي إلى ربط قضية اللغة بالبرهان على وجود الله، باعتباره معلّم كل شيء.»[8]

وإذا كان من الممتنع البيّن ومن المحال الضروري أن يَخلُق ويُحدث الإنسانُ العالَم بما فيه، وبما أنه لم تكن للإنسان إمكانية الاهتداء للعلوم والصناعات دون تعليم، وكان لَابدّ لهذا التعليم أن يتم بلغة ما.« فصحَّ أنه لابد من مبدإٍ للغة... وكل هذا لَا سبيل إلى الاهتداء إليه دون تعليم، فوجب بالضرورة ولابد أنه... علّمهم الله تعالى إبتداءًا كل هذا دون معَلّم لكن بوحي

---

[1]) ابن حزم: "الإحكام..."(٢٨/١). في حين يذهب خصومه إلى أن محاكاة الإنسان للظواهر الطبيعية كاستماعه لصوت الرعد ودوي الريح وغيرها مكن الإنسان من إنشاء لغته. ينظر لابن جني: "الخصائص"(ص٤٧-٤٨) وعلي عبد الواحد وافي:"علم اللغة" (ص.١٠٣).

[2])- "الله علّم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات... فكان آدم وولده يتكلمون بها، ثم إن ولده تفرقوا في الدنيا، وعلِق كل منهم بلغة من تلك اللغات وغلبت عليه، واضمحل عنه ما سواها." ابن جني:"الخصائص" (٤١/١).

[3]) ابن حزم: "الفصل"(٣٧/٢) (١٥٧/٣) و"الإحكام"(٢٧/١).

[4]) ابن حزم: "الرسائل"(٩٥/٤).

[5]) سورة البقرة [الآية :٣١].

[6]) ابن حزم: "الإحكام" (٣٠/١).

[7])- سورة الروم [الآية:٢٢].

[8])- عبد السلام المسدي:"التفكير اللساني في الحضارة العربية" الدار العربية للكتاب ، طرابلس ، ط.١٩٨٦م (ص.٦٠).

النبوة.»[1] إضافة إلى أن العيش والتربية وعمارة الأرض وتسخير الحيوان ونحو ذلك مما لَا يمكن أن يكون« وجوده أصلًا إلّا بلغة يقع بها التخاطب والتفاهم وكذلك جميع العلوم... وجميع الصناعات والحصاد والدَّرس... فصَحَّ ضرورة أنه لَابد في اللغات من معلِّم... وأنه تعالى علّم كل ذلك أوّل من أحْدث من نوع الإنسان، ثم علّمها ذلك المعلم سائر نوعه، ثم تداولوا تعلّم ذلك وهذا برهان ضروري حسي مشاهد... وهي تعليم الخالق اللغات والعلوم والصناعات ابتداءًا.»[2] ولكن لو احتج محتجٌّ بأن هناك ألفاظا وحدودا لها معان عدة، وأسماء واقعة على مسميات أخرى، أفلَا يدل ذلك على الإصطلَاح والتواضع؟. لأنه لو كان الأمر توقيفاً من عند الله لما حصل ذلك، وهذا بدوره يؤكد على أن الإنسان يتصرف في إيقاع الألفاظ.؟ « وإذا قال قائل: قد وجدنا لفظا منقولًا، قيل له: ذلك الذي وجدت قد تبيّن لنا أنه هو موضوعه في ذلك المكان، ولم تجد ذلك فيما تريد إلحاقه بلَا دليل، وليس كل مسمى وجدته منقولًا عن رتبته بدليلٍ موجبًا أن تنقله أنت إلى غيره برأيك بلَا دليل.» [3]

ثانيا : وظيفة اللغة عند ابن حزم :

سيطر موضوع ربط اللغة بوجود الإنسان على فكر ابن حزم، إذ نجده يؤكد على أنه لابد من وجود إنسان حتى نقرّ بوجود لغة، بل إنه عدّ اللغة لبنة أساسية في الحياة البشرية، حيث أنها ارتبطت بالوظائف التي يقوم بها الإنسان.[4] ذلك أن مسألة التعلّم والتعليم والتدرب على الصناعات وعمارة الأرض، وتسخير الحيوانات ونحو ذلك مما يحتاجه الإنسان في المسائل والقضايا العلمية والمعرفية لن يتم إلّا باللغة.« فإنّ النشأة والتربية والعيش وعمارة الأرض والحيوان المسخّر لَا يمكن شيء من ذلك البتة ولَا يكون وجوده أصلًا إلّا بلغة يقع بها التخاطب والتفاهم... وكذلك جميع العلوم وكذلك جميع الصناعات.»[5] فاللغة هنا ظاهرة اجتماعية يحصل بها ارتباط الإنسان بغيره، بل وبوجوده أصلًا، فهي عصب الحياة وعمدتها وعمدتها ولَا قيمة للإنسان بدونها. ومن الوظائف التي أشار إليها أبومحمد: التواصل والتخاطب، ونقل الأصوات والإستبانة أو البيان والتمييز[6] حيث أنها تمكننا من معرفة آثار القدامى وأخبار الأوّلين، والإطّلَاع على علومهم ومذاهبهم وتواريخهم. « ولولَا هذا الوجه ما بلغت إلينا حِكم الأموات على آباد الدهور، ولَا علِمنا عِلم الذاهبين على سوالف الأعصار ولَا انتهت إلينا أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية.» [7] إضافة إلى أن من وظائفها الضرورية تفهيم ما كان غامضا وبيان ما هو ملتبس، وتبسيط ما هو معقد وتقريب ما هو بعيد؛ بل إن معرفة الحقائق لَا تكون إلّا بتوسُّط الألفاظ، وإدراك المعاني لَا يتم إلّا بالكلمات والعبارات اللغوية. كما أن إدراك حقائق الموجودات وتمييز المسميات والمدلولَات عن بعضها البعض، لَا يمكن أن يحدث إلّا باللغة.« لَا سبيل إلى معرفة حقائق الأشياء إلا بتوسط اللفظ...ولَا سبيل إلى نقل مقتضى اللفظ عن موضعه الذي رتّب للعبارة عنه، وإلّا ركبت الباطل وتركت الحق، وجميع الدلائل تبطل نقل اللفظ عن موضوعه في اللغة.»[8] ولإن من من وظائفها أيضا، إحداث التفاهم والإتفاق بين الناس، مع إدراك حقائق الموجودات في عالم الناس، ولَا يمكن أن يحدث

---

[1]- ابن حزم: "الفصل" (٧٨/١) .

[2]- ابن حزم : "رسالة التوقيف على شارع النجاة" ضمن: "رسائل ابن حزم" (١٣٦/٣-١٣٧) .

[3]- ابن حزم: "الرسائل" (٢٨٤/٤).

[4]- حسن بشير صالح: "علاقة المنطق باللغة عند فلاسفة المسلمين" دار الوفاء، الإسكندرية ، مصر ،ط.١ ،٢٠٠٣م (ص.١٠٨).

[5]- ابن حزم: "رسالة التوقيف على شارع النجاة" ضمن "الرسائل" (١٣٦/٣).

[6]- ابن حزم: "الرسائل" (٩٦/٤).

[7]- نفسه.(٩٧/٤).

[8]- نفسه (٢٨٤/٤).

ذلك إلّا باستخدام الألفاظ والحدود والكلمات؛ بل وإبقاؤها على معانيها حتى لَا يكون الإختلَال؛ ذلك أن الدّال إذا صرف أو استبدل، فإن المدلول تبعا لذلك يعتريه التبدل والتغيّر، ولَا يحدث تبعا لذلك أي تواصل بين المتكلم والسامع، بل يتباين ذلك كله ويفسد المعنى بنقل اللفظ عن الموضع الصحيح الذي وضع له، وثبت في العقول أنه لَا بيان إلّا بالألفاظ المعبرة عن المعاني التي أوقعت عليها في اللغة.»[1]

فوظيفة اللغة أن تبلغ اليقين والحقيقة والدقة، في التعبير عن المسميات بالأسماء وعن المعاني بالألفاظ، لأن حمل اللفظ على غير معناه يعني الغموض والإبهام واللبس. وعلى هذا فهي وسيلة تعلُّم وتعليم وإعلام وتمييز للأشياء عن بعضها البعض« وأن تكون المسميات منها وضعت لها أسماء تختص بالمسمى أو بأشخاص ما لتمييز بعضها من بعض، فإما أن تتّفق فيها وإما أن تختلف. وهي قد تُبدّل وقد تستقر استقرارا لَازما... فهذه أقسام مسميات كلها تحت الأسماء ووقوع الأسماء كلها على المسميات.»[2] فمن الأسماء معارف ومنها نكرات،كما أن منها أبْدالاً ينوبُ بعضها عن بعض معروفة في اللغات، بعضها للحاضر وأخرى للغائب، وإن منها ما هو للمتكلم وبعضها للمشار إليه، ومنها الضمائر والكنايات والمبهمات[3] وغيرها كثير. ومن هنا كان من الضروري التمييز بينها، ومعرفة ذلك كله لا تتم إلا باللغة. « وهكذا كل مسمى وُضع له إسم.»[4] فالكيفية التي بموجبها تقع الأسماء على المسميات، وتعرف بها حقيقة الأشياء تستند أوّلًا وأخيرا إلى المعيار اللغوي، بل إن الحقيقة ينبغي أن تمرّ باللغة، وعبْر اللغة، وفي اللغة أيضا؛ واللغة عنده هنا، هي لغة الشرع.« وهذا ممّا قلنا: إنه تعالى يسمّي ما شاء بما شاء فهو خالق الأسماء والمسميات كلها.»[5] والتعرف على خطاب الله لنا إنما يتم من خلال اللغة، التي تعتبر في نظر أبي محمد وسيلة هامة تُمَكِّنُنَا من فهم كتاب الله والتلقي عنه؛ بل وهي التي تميّز الإنسان عن الحيوان، وهو يشير هنا إلى لغة اللسان ولغة العقل.« فلولَا اللغة لبطلت فضيلتنا على البهائم إذا لم يقع لنا التفاهم بالأسماء الواقعة على المسميات... ولوْلَاها أيضا لما استحققنا أن يخاطبنا الله تعالى بهذه القوة العظيمة.»[6] وعلى هذا فلا يمكن لأيّ كان أن يُهمل اللغة أو يحطّ من شأنها، خاصة وأنها علم من علوم الله التي أعطاها لعباده لقوله تعالى:﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾[7] واللغة من العلم الإلهي الذي علمه الله لنا.[8]

لذا كان من الضروري تقديم لغة الشّرع على لغة العرب؛«... لأن اللغة العربية تعتبر الأصل، وهي التي نزل بها القرآن... واللهُ واضعُ اللغة وموقِفُها، حَمَّل الألفاظ ما شاء من المعاني. فعلَاقة الألفاظ بمعانيها لَا تندرج في إطار الزمان والفعل والمبادرة الإنسانية، بل تبقى في مستوى الخلق والإرادة الإلهيين، ولَا يمكن للزّماني أن يُتّخذ حجّة على اللاّزماني، كما لا يمكن للإنساني أن يُتّخذ دليلًا على الإلهي... ولذا فحمل اللفظ على الحقيقة الشرعية مُقدّم على حمله على الحقيقة اللغوية.»[9] أي أنه لا مجال لصرف الألفاظ عن معانيها الموضوعة لها في الشريعة؛ فهذا ما يجب أن نفهمه، خاصة إذا وضعنا في أذهاننا

---

١)- نفسه. (٤/٢٨٢).

٢)-ابن حزم:"رسالة التقريب لحد المنطق" ضمن "الرسائل" (٤/١٣٦).

٣) -ابن حزم: "الرسائل"(٤/١٨٨-١٨٩).

٤)- نفسه. (٤/١٨٧).

٥)- ابن حزم :"الإحكام"(١/٥٢٣).

٦)-ابن حزم:"الرسائل"(٤/٢٧٩).

٧)- سورة البقرة [الآية:٢٥٥].

٨)-ابن حزم :"الفصل"(١/٣٣٥).

٩)- سالم يفوت:"ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس"المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب،ط.١٩٨٦م (ص.١٥٣).

قاعدة طالما كرّرها أبو محمد: الله هو واضع اللغة وليس الإنسان، ولهذا فمن يحقّ له التصرف في الألفاظ أو الأسماء والمعاني أو المسميات هو الله عزّ وجل. ولغة الشرع تمحو عنده لغة عرب الجاهلية، وتنزع عنها المقياس والمعيار الذي يمكن أن يتخذ لضبط الأسماء والمسميات. وبهذا يتضح لنا سبب « إلحاح ابن حزم على قراءة القرآن داخل مجاله التداولي الأصلي، الذي يتحدد باللغة العربية وأساليبها التعبيرية ومضامينها المفهومية كما كانت متداولة زمن النبي،وذلك في الحقيقة مضمون ظاهريته؛ إن إلحاحه هذا، يدلّ على أنه قد أدرك بوضوح الطابع الخاص للخطاب الديني.»[1]

كما تبرز لنا أهمية علم اللغة وعلم النحو، ودورهما عنده في فهم النصوص الدينية، وفهم بناء وطريقة تركيب كلام الله وكلام رسوله، وكيفية الإستنباط بالشكل الصحيح.« فمن لم يعْلم النحو واللغة، لم يعْلم اللسان الذي به بيّن الله لنا ديننا وخاطبنا به، ومن لم يعْلم ذلك فلم يعْلم دينه... وفرضٌ عليه واجبٌ تعلّمُ اللغة والنحو.» [2] وعلى هذا فمن لم يتقن اللغة العربية، حرام عليه الإفتاء لأنه يتقوّل على الله بما لا يعْلم، ولا علْم له باللسان، وحرام على المسلمين أن يستفتوه أيضا.[3] فاهتمامه باللغة نابع من ضرورة خدمة النص القرآني شكلا ومنهجا، نصّا ومضمونا، ذلك لأن كلام الله ألفاظ وكلمات عربية، ومن ثمة كان لابد للدرس اللغوي أن يصبّ اهتمامه على ما بين دفّتيْ المصحف لمعرفة معنى ومبنى الآيات معا، وهذا ما انتبه إليه بعض الباحثين.[4] ولكن لماذا ربط أبو محمد اللغة باللسان؟.

يبدو لي أن ذلك الربط تم لسببين اثنين: أحدهما تأثّره بالنصوص، حيث وردت اللغة في آيات كثيرة مرادفة للّسان كقوله تعالى:﴿ **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾ [5] وقوله عزوجل:﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم**﴾[6] وفُسّرت الآيتان على أن أن المقصود باللسان فيهما هو اللغة، لأنّ « لسان كل قوم هو لغتهم.»[7] وثانيهما: أنّ إيقاع الكلمات المؤلّفات من الحروف يخرج من أعضاء حسّية أهمها اللسان والحلق، فينقل الصوت من المتكلّم إلى المستمع. فاللسان هو عضو النطق الأهم عند الإنسان، وبه يتم الكلام والبيان.[8] وهذا هو ذاته السبب الذي جعل القدامى يتخذون إسم اللسان شعارا للّغة. وهو ما نبّه إليه ابن خلدون(ت.٨٠٨هـ) بقوله:« اللغة هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام... العضو الفاعل لها وهو اللسان وهو في كل أمة بحسب اصطلاحهم.» [9] وفي إشارة واضحة إلى ارتباط الكلام بالأعضاء الفسيولوجية للإنسان، وفي التركيب بين العاملين المادي والمعنوي يقول أبومحمد:« والوجه الثالث: إيقاع كلمات ... لها المخارج من الصدر والحلق وأنابيب الرئة والحنك واللسان والشفتين والأسنان، وهيّأ لها الهواء المندفع... فتوصِل بذلك نفس المتكلم في نفس المخاطب ويستقر في نفس المخاطب مثلُ ما استقر في نفس المتكلم ، فهذه المرتبة الثالثة من مراتب البيان.»[10]

---

[1]– محمد عابد الجابري :"تكوين العقل العربي" مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط.٥، ١٩٩١م (ص.٣٠٩–٣١٠).

[2]– ابن حزم: "رسالة التلخيص لوجوه التخليص " ضمن "الرسائل" (١٦٢/٣).

[3]– نفسه.(١٦٢/٣–١٦٣).

[4]– تمام حسان: "الأصول :دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب" الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،ط.١٩٨٢م،(ص.٢١–٢٩).

[5]– سورة الشعراء.[الآية:٢٦].

[6]– سورة إبراهيم. [الآية.١٤].

[7]– ابن حزم: "الفصل" (٣٧/٢).

[8]– ابن حزم: "الرسائل" (٩٦/٤).

[9]– ابن خلدون: "المقدمة" تحقيق: درويش الجويدي ، المكتبة العصرية ،صيدا ،لبنان ط٢ ،١٩٨٦م،(ص.٥٤٥) .

[10]– ابن حزم: "الرسائل" (٩٦/٤).

إن ظاهرية ابن حزم حملَته على معالجة البيان -اللغة- من زاوية فَسْلجة جهاز النطق (الكلَام) ومناقشة الكلَام (اللغة) من زاوية التخاطب ونقْل المعارف والعواطف بين المجموعة البشرية التي تتحدث هذه اللغة. ونعلم اليوم أن هذه المسألة تُدرس في دائرة المنطق المعاصر، وهو مايسميه **رودلف كارناب** بالبعد الراجماطيقي للُّغة، أي البعد الإجتماعي للّغة.[1] وهذا يقتضي توفر جملة من العناصر هي: المتكلم أو مرسلُ الكلام، والسامع أو متلقي الكلام، إضافة إلى الوسط الذي ينتقل فيه الكلام، ثم الرسالة التي هي الكلام، أي الإشارات الدالة أو الحركات التي يؤدَّى من خلالها البيان.[2] وهاهنا تصوير دقيق لافت لافت للإنتباه، حيث تناول ابن حزم مسألة تحليل الكلام ومصادره من جهة، وجعل الكتابة جزءا من اللغة من جهة أخرى. فهو يشير إلى الصوت المنبعث من الحنجرة واللسان وسائر الأعضاء المُعَبِّرة عمّا في النفس من معان، أي مقاصد النفس ومدلولَاتها التي يرتبط فيها المتكلّم مع السامع؛ وهذا اللفظ سواء كان صوتا أي الكلام، أو مكتوبا أو مشارا إليه أو غير ذلك، فكلّه دالّ على مدلول ما. وهو ما نصّ عليه أيضا ابن سينا، حين اعتبر الكتابة صورة من صور اللغة، لكنها غير منطوقة.[3] وبالتالي تتحدد الدلالة التي يتضمنها الخطاب اللغوي على ما يصدر عن المتكلم، ومدى قدرته على إفهام السامع بمراده من كلامه من جهة، وكيفية فهم السامع وإدراكه لدلَالة ذاك الكلام من جهة أخرى وهما أمران عقليان.« وأما الصوت الذي يدل بالقصد فهو الكلَام الذي يتخاطب الناس به فيما بينهم ويتدارسون بالخطوط المعبرة عنه في كتبهم...وهذه هي التي عبّر عنها الفيلسوف بأنْ سمّاها الأصوات المنطقية الدالة...» [4] أي الدالة على المعنى الذي يريده الإنسان، ويعني كذلك دلَالة اللفظ على المعنى. فالحرف لفظ يدلّ على معنى تصوري ذهني، وهو نفس ما دعا إليه فيما بعد اللغوي السويسري "دي سوسير **DE SAUSSURE**" (ت١٩١٣م) حين فرّق بين اللغة والكلام، مُقراً بأن اللغة هي مجموع الإتفاقات التي تضعها هيئة اجتماعية ما، لتمكّن أفرادها من ممارسة اللسان، والكلام هو العملية التي يقوم بها الأفراد المتكلمون.[5] وعلى هذا فاللغة تشمل جملة الأصوات والإشارات والحركات والخطوط، وكل ما يمكن أن يكون وسيلة اتصال وتخاطبٍ.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن من القضايا الغوية التي استبق بها أبو محمد عصره، وتناولها حديثاً علماء النفس وعلماء اللغة، إشارته إلى أن اللغة قسمان: منها ما يشترك فيه الإنسان مع الحيوانات، ومنها ما يخصّ الإنسان وحده. فالأولى تتمثل في الأصوات والحركات التي يتراسل ويتواصل بها جنس الحيوانات بطبعهم وغريزتهم، والثانية تشمل الكلام الذي يتخاطب به الناس والكتب التي يتراسلون بها، وغير ذلك من الحركات والإشارات المعبّرة الواعية، الصادرة عن الفكر. وهنا نجد دقة التمييز لدى أبي محمد إذ أنه على الرغم من اندراجهما منطقيا تحت جنس واحد، هو الأصوات الدالة على مراد أو معنى أو مدلول ما، إلّا أنها مقيدة ومحددة لدى الحيوانات بالطبع والغريزة المجبول عليها، حيث لَا تبديل ولَا تغيير فيها، أي أنها ثابتة كلغة النمل أو النحل مثلا ونحوهما، أما لدى الإنسان فهي تُتَعلّم وتُكتسب وتتغير أيضا، لكونها فكرية واعية قصدية.« إن الصوت الذي يدل على معنى ينقسم قسمين: إما أن يدل بالطبع وإما أن يدل بالقصد، فالذي يدل بالطبع هو كصوت الديك... وكأصوات الطير والكلاب... وأصوات السنانير في دعائها أولادها، وسؤالها وعند طلبها السِّفاد، وعند التضارب... وما

---

[1]– محمد جلوب الفرحان: مجلة: "دراسات عربية " العدد:٥،السنة:٢٤ مارس:١٩٨٨م، مقال: "أصالة الأبحاث المنطقية عند ابن حزم" (ص.١١٦).

[2]– ابن حزم:" الرسائل"(٤/٩٦-٩٧).

[3]– " إحتيج إلى ضرب آخر من الإعلام غير النطق، فاخترعت أشكال الكتابة، وكلّه بهداية إلهية وإلهام إلهي." ابن سينا: "العبارة " (ص.٢– ٣).

[4]– ابن حزم:"الرسائل"(٤/١٠٥-١٠٦).

[5]) حسن بشير صالح: "علاقة المنطق باللغة عند فلاسفة المسلمين" (ص.١٠٧)

أشبه ذلك من أصوات الحيوان غير الإنسان ...وأما الصوت الذي يدل بالقصد فهو الكلَام الذي يتخاطب الناس به... وهذه هي التي عبر عنها الفيلسوف بأن سمّاها الأصوات المنطقية الدالة.» [1]

كما بين ابن حزم أن الإنسان يشترك مع الحيوان في اللغة الطبيعية الفطرية الغريزية، لكنه يختلف عنه في اللغة الفكرية التي يمكنه اكتسابها بالتعلم.« لَا سبيل إلى أن يعرف أحد شيئا من ذلك كله حتى يوقَفَ عليه... ويفتّق ذهنه في ذلك بما جُعل في طبعه من قبوله وبرهان ذلك أنه من لم يُعَلَّمْهُ قط لَا يدريه... هذا بخلَاف ما تقتضيه الطبيعة مما لَا يحتاج فيه إلى تعلّم كالرضاع والأكل والشرب والجماع، وغير ذلك مما لَا يحتاج فيه الإنسان إلى معلّمٍ، وكذلك سائر الحيوان.»[2]

وعلى هذا فالإنسان يتميز عن البهائم باللغة التي فيها البيان، وإلّا لزِمَه أن يكون مثلها.[3] ولكن ما البيان؟.

قد لَا أكون مبالغا إن قلت: إنّ أهم مسألة عالجها أبو محمد هي البيان.« والبيان: كون الشيء في ذاته ممكنا أن تعرف حقيقته لمن أراد علمه، والإبانة والتبيين: فعلُ المبين وهو إخراجه للمعنى من الإشكال إلى إمكان الفهم له بحقيقة، والتبيين: فعل نفس المبيّن للشيء في فهمه إياه، وهو الإستبانة أيضا، والمبيّنُ هو الدال نفسه.»[4] فأبو محمد يطرح هنا إمكانية التعرف على المعنى الذي يدرك بناءاً على المعنى الظاهر من دلَالة الألفاظ، حيث أنه لَا يجوز انتزاع المعنى من السّياق والمضامين التي ورد فيها، بخلاف ما يقوم به القائسون من الفقهاء وغيرهم.« وهكذا فالبيان كفعل معرفي هو الظهور والإظهار، والفهم والإفهام، وكحقل معرفي هو عالم المعرفة الذي تبنيه العلوم العربية الإسلامية الخالصة، علوم اللغة وعلوم الدين.»[5]

فالبيان يمثل موضوعا بالغ الأهمية، في فهم النصوص وتفسيرها وتبيينها، ودراسة معاني الحدود ودلَالَات التراكيب اللغوية؛ كما أنه إظهار المقصود بأبلغ لفظ والكشف عن ماهيته وإظهاره ليبدو بارزا واضحا.[6] لهذا « فالبيان إسم جامع لكل شيء يكشف قناع المعنى، حتى يفضي بالسامع إلى الحقيقة.»[7] ومن خلَال المثال التالي الذي ضربه أبو محمد نستشف مُراده من البيان.«... أوَ ترى إذْ قال الله تعالى:﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِم وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾[8] أنه أمرنا قياسا على ذلك، أن نخرّب بيوتنا بأيدينا وأيدينا، قياسا على ما أمرنا الله تعالى أن نعتبر به... أفيجوز لذي مَسْكةِ عقل أن يقول إن العبرة ههنا القياس.» [9]

فابن حزم يرى أن القياس والتأويل غير جائزين هنا، حيث لَا يجب انتزاع الألفاظ من سياقها الظاهر وتضمينها معنًى خفيا لَا يحتمله ذاك السياق؛ ولو أن معنى اعتبروا هنا، هو قيسوا على حد تعبير هؤلاء، لاقتضى الأمر أن يكون الله أمرنا قياسا على ذلك أن نخرب بيوتنا بأيدينا وأيدي الآخرين. في حين أن هذه الآية أبْيَنُ شيء في إبطال القياس؛ ولذا فإن معنى

---

[1]) ابن حزم:"الرسائل" (٤/١٠٥-١٠٦).

[2])- نفسه. (٣/١٣٦).

[3])- نفسه.(٤/٩٤-٩٥).

[4]) ابن حزم: "الإحكام..." (١/٣٩-٤٠) و "الرسائل" (٤/٤١٤).

[5])- محمد عابد الجابري:"بنية العقل العربي" مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، ط.١٩٩٢م (ص.٥٥٦).

[6])- البيان لغة : الفصاحة... وهو الكشف والتوضيح مصدر: بان، وهو لازم ومعناه الظهور، وقد يكون متعديا بمعنى الإظهار." التهانوي "كشاف اصطلاحات الفنون" تحقيق: لطفي عبد البديع ، المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة ، ط.١٩٦٣م (١/١٢٦).

[7]) الجاحظ: "البيان والتبيين" تحقيق: عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط.١٩٧٥ (١/٧٥-٧٦).

[8]) سورة الحشر [الآية :٢].

[9]) ابن حزم :"الإحكام" (٢/٤٠٤).

الإعتبار والعبرة هنا هو التفكّر والتبيُّن. « ولَا عَلِم أحد في اللغة التي نزل بها القرآن أنّ الإعتبار هو القياس، وإنما أمرنا تعالى أن نتفكر... وأراد: هلّا اعتبرتم أي هلّا تبيّنتم »[1] ولهذا أيضا رفض أبو محمد القياس والتأويل، كما رفض التقليد من قبل، فاسحاً المجال أمام القارئ ليجتهد ويستنبط الأحكام ويفهمها بناءا على ظاهر النصوص؛ وما ذلك إلا لأن النصوص معقولة المعنى في ذاتها، ولذا أباح الإجتهاد تبعا لذلك، فالظاهر من النص أو المنطوق به، هو الذي يجب الإلتزام به لأنه الوارد إلينا من الله عزّ وجل. إن هذا الفهم، ليس فهما واقعيا ساذجا أو سطحيا كما قد يتصوره البعض، ولَا جمودا أو تحجّراً وعدَمَ إعمالٍ للعقل؛ بل إنه الإلتزام بالنصوص وحسب، ولأن ذلك ما تظهره الألفاظ، أي أن النص يعطيك ما فيه وما يدلُّ عليه. ولذا وجب الوقوف عند حدود الدلَالة الظاهرة للألفاظ، منْعا للتحريف والتأويل والزيادة على النّص كالنقصان منه.

وما ذاك إلّا لأن النص كاملٌ مقدس، وهو ما يعبر عنه ابن حزم بـ"منطق البيان"[2] ولعله كان أوّل من استفاد استفادة عظيمة من اللغة، لبيان قيمة منهجه العلمي، في مناقشة مختلف العقائد والأفكار؛ بل وكان من أوائل من اهتم بهذه النقطة من العلماء المسلمين.[3] « وقد علِمنا يقينا وقوع كل إسم في اللغة على مسمّاه فيها... وأن الملح لَا يسمى زبيبا... فإذْ قد أحكَم اللسانُ كل إسم على مسمّاه لَا على غيره، ولم يُبعث محمد إلّا بالعربية التي ندريها... فالزيادة على ذلك زيادة في الدين وهو القياس، والنقص منه نقص من الدين وهو التخصيص، وكل ذلك حرام بالنصوص التي ذكرنا.»[4]

إن هذا التركيز على الظاهر لَا يعني مطلقا إلغاء دور العقل، فظاهرية ابن حزم لم تكن تضييقا على العقل كما يعتقد البعض؛ بل إنه قد دعا إلى التمسك بظاهر"النص"، ولكنه لم يكن يرمي من وراء تلك الدعوة إلى التضييق على العقل؛ بل على النقيض من ذلك، لقد أراد تحرير الخلَف من التبعية لتأويلَات بعض السلف؛[5] بل إنه رجا من ذلك أن تكون اللغة تعبيرا عن نظام فكري كامل. ولَابد من أن تضبط مبادئها وقواعدها ودلَالَاتها، حتى يصان الذهن عن الوقوع في الخطإ والزلل أثناء محاولَاته فهم النصوص واستنباط أحكام الشريعة؛ وحتى لَا يتلَاعب المتلَاعبون أو يُموِّه المسفسطون، أو يتفلّت القائسون والمؤوّلون من سلطان النص، الذي يراد له أن يكون لجاما ضروريا لهم. وكان من الضروري أن يحاط النص بإطار ضامن لَا نجده إلّا في اللغة والمنطق، وهذا ما تبيّنه العبارة الآتية التي تتحدث عن أهمية اللغة، والدور المنوط بها لتُؤدّيه.« ولَا سبيل إلى معرفة حقائق الأشياء إلّا بتوسُّط اللفظ... والأشياء على مراتبها التي رتبها عليها بارئها جل وعزّ، ولَا سبيل إلى نقل مقتضى اللفظ عن موضعه الذي رُتّب للعبارة عنه، وإلّا ركّبتَ الباطل وتركتَ الحق، وجميع الدلَائل تبطل نقل اللفظ عن موضوعه في اللغة، ولَا دليل يصحّحه أصلًا.»[6] أي أنه لَا تفكير بغير ألفاظ، ولَا لغة بلَا معان. فالألفاظ جوفاء فارغة إذا لم تعبّر عن حقائق التصورات، وبالمقابل تكون هذه التصورات الذهنية سرابا ووهْما إذا لم تحصِّنها الحدود والألفاظ، وتعطي لها وجودها الفعلي وكينونتها الحقيقية والواقعية.« فليُعْلم أننا إنما ننظرُ المعاني بألفاظ متّفق عليها، لتكون قاضية على ما يغمض فهْمه مما ليس من نوعها.»[7] وما ذاك إلّا لأن الخطر يتهدد المعنى، إما بتحريفه أو تغييره.

---

[1]) نفسه.(٢/٤٠٣-٤٠٥).

2)-ARNALDEZ ROGER: "grammaire et Théologie chez IBN HAZM de Cordoue essai sur la structure et les conditions de la pensée musulmane" LIBRERIE PHILOSOPHIQUE، J. VIVIE، Paris، 1956 (PP.162-818)

3)-IBID (pp.37-87).

[4]) ابن حزم: "الإحكام" (٢/٥٣٠).

[5]) محمد عابد الجابري: "بنية العقل العربي" (ص.٥٦٩).

[6]) ابن حزم:"الرسائل" (٤/٢٨٤).

[7])- نفسه.

والحق أن توضيح المعنى على المستوى الوظيفي (الصوتي والصرفي والنحوي) لَا يقدم لنا إلّا المعنى الحرفي أو معنى ظاهر النص، كما يسميه الأصوليون،[1] وهذا ما كان ابن حزم يبتغي الوصول إليه.

إن الصراع الذي قام بين ابن حزم الملتزم بالمعنى المنطوق من ظواهر النصوص، وبين التأويليين ومعتمدي القياس، الذين اتّهموه بالجمود والتحجر، يشبه إلى حدّ بعيد ماحدث في العصر الحديث حين كتب الناقد اللامع "م.أمبراس" مقالًا سنة ١٩٧٧م إعترض فيه على التفكيكيين والبنيويين، معتبرا أن القراءة الذاتية للنص، هي إساءة قراءة: **CALL READING ARE MISREADING** وكل تفسير إنما هو إساءة تفسير. فحمل عليه التفكيكيّون حملة شعواء، متهمين إياه بالجهل والجمود وتحجّر الفكر؛ ذلك لأن الفلسفة البُنْيويّة، وكذلك التّفْكيكيّة أَسَّسَتَا فلسفة التأويل:-الهرمينوطيقيا-"**HERMENEUTICS**" وألْغتا توَحُّد النّص وتجانسه، مع مطالبتها بتعدّد القراءات، وكذا التعدد اللانهائي لتفسير النص، وإعطاء الذّاتِ حريةَ تفسير النصوص كيفما شاءت. فالنص عندهم يتعدّد بتعدّد قُرَّائه وقراءاته، وليس له معنى محدّد، ولهذا فليس له تبعاً لذلك تفسير نهائي.[2]

ثالثا :- علاقة اللفظ (الدال) بالمعنى (المدلول) :

كثيرا ما هيمنت مشكلة العلَاقة بين اللفظ والمعنى على تفكير فلَاسفة اللغة وعلمائها، بل إنها شغلت مفكري الإسلَام، من فقهاء وأصوليين، ومتكلمين ونحويّين ومناطقة، وكانت محورا رئيسا لإنتاجهم الفكري؛ بل إن دراسة علَاقة الألفاظ بالمعاني تظهر أيضا العلاقة القائمة بين اللغة والمنطق، ولذا فإنه كثيرا ما تتداخل مباحث اللغة والمنطق، حتى يبدو أحدهما في صورة الآخر،[3] فلَا عجب أن نجد ابن حزم من أوائل الذين اهتموا بهذا الموضوع.[4] « وقد علمنا ضرورةً أن الألفاظ إنما وُضعت ليُعبّر بها عما تقتضيه في اللغة، ويعبَّر بكل لفظة عن المعنى الذي علقت عليه فمن أحالها فقد قصد إبطال الحقائق.»[5] ومن هنا فقد أثارت علاقة اللفظ بالمعنى انتباه أبي محمد، فحاول فهمها ومعالجتها على ضوء المنهج الظاهري الذي يتّبعه. وما ذاك إلّا لأن مذهب الظاهر الذي اعتنقه ابن حزم، يعتمد في فهم النصوص على ظاهرها، وتبيُّن معناها بلا غوص إلى باطنها، ولَا لقياس لفظ على آخر، ولَا لصرف لفظ عن حقيقته المعلن عليها بوضوح إلى مجاز أو تأويل، وعدم تجاوزه إلى معانٍ باطنية، فهذا كله قد ألزم ابن حزم أن يُعنى باللغة، لأنها عنده الوسيلة الأولى لفهم وإدراك المعاني.[6] وأما عن علاقة اللفظ بالمعنى، عنده فلابدّ من وقوع الأسماء على المسميات، رابطا بينهما ومحددا العلاقة الوثيقة بين طبيعة اللفظ وطبيعة المعنى. إذ أن المعاني أو المسميات ما لم تحدّدها أسماؤها وألفاظها، تبقى مائعة ممتدة مطلقة وغير محدودة.« لَا سبيل إلى معرفة حقائق الأشياء إلّا بتوسط اللفظ، فلَا سبيل إلى نقل موجب العقل عن موضعه من كون الأشياء على مراتبها التي رتّبها عليها بارئها جل وعز، ولَا سبيل إلى نقل مقتضى اللفظ عن موضعه الذي رتّب للعبارة عنه.»[7] فالأسماء في علَاقاتها بمسمياتها تعبير عن المعاني التي وضعت لها، وهي خاصة بها، وكل لفظ موجود له معنى يقابله، لأن

---

[1]- تمام حسان : "اللغة العربية معناها ومبناها" الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ط.١٩٧٣م (ص.٣٣٧).

[2]- ينظر عن هذا الموضوع: عبد العزيز حمودة: "المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك".

[3]- علي سامي النشَّار: "المنطق الصوري منذ أرسطو حتى عصورنا الحاضرة " دار المعارف ، القاهرة (ص.١١٧).

[4]- حسن بشير صالح: "علاقة المنطق باللغة..." (ص.١١٣).

[5]- ابن حزم: " الإحكام..."(٧٨/١).

[6]- عمر فروخ: "ابن حزم الكبير" دار لبنان للنشر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٠م (ص٦٤).

[7]- ابن حزم:"الرسائل"(٢٨٤/٤).

تقسيم الله الأنواع، تبعه تقسيم الكلمات والألفاظ في حيّز هذه الأنواع، ولذا فلا يجب الفصل بينهما. وثانيا لأن الله خلقها وعلّمها الإنسان، ومن ثمة فإن ابن حزم يحذّر من تحميل اللفظ ما لَا يحتمل، أو وضْعه على غير ما وضعه الله له، وأن لا يُنقل عن موضعه إلّا بدليل من النص.« وأما خصوص لفظ في نوع يراد به نوع آخر، فهذا خطأ لا سبيل إليه وهو باطل بالطبيعة والشريعة واللغة.»[1] مبيّنا أن الله حدّ حدودا فلا يجوز تعدّيها، فأما البرهان الطبيعي:« فقد علمنا ضرورة أن الأسماء إنما وضعت ليعبَّر بها عن المعاني التي علقت عليها وسميت بها... وأما اللغة فإنّا نسأل كل عالم وجاهل: ما البُرُّ ؟ فيقول: القمح... هذا ما لَا يختلف فيه أحد من شرق الدنيا وغربها... فتعدّوا الحدود وأوقعوا الأسماء على غير مسمياتها.»[2] ومن هنا نفهم بالتحديد ما يقصده أبو محمد من أنه لَا سبيل إلى نقل مقتضى اللفظ عن موضعه الذي وُضِع ورُتّب له ذلك، لأنَّ العلَاقة بين اللفظ ومعناه علاقة لَازمة ضرورية، فالله خالق الأسماء والمسميات أو الألفاظ والمعاني جميعا، ولَا سبيل إلى الفصل بينهما، أو التصرف فيهما على غير ما يقتضيه الوضع اللغوي الذي هو من خلق الله أيضا.

ولهذا نجده يتمسك بظاهر النص في الفقه والأصول والعقائد وغيرها، بل ولهذا السبب أيضا يوجب أخذ ما جاء في الشريعة على ظاهره، ويرفض تبديله أو تأويله إلا بدليل نصي، أو إجماع أو بمقتضى الحس والمشاهدة. فالأسماء موقوفة للتعبير عن مسميات ما، وبما تسمح به معانيها. فالله خالق اللفظ والمعنى ودلَالَات الأسماء والمسميات محددة سلفا بالنقل-السمع- فَعَلَ ذلك خالقُ اللغة.[3] ومن ثمة، فإنَّ « قول الله عزوجل يجب حمله على ظاهره، مالم يمنع من حمله على ظاهره نص آخر أو إجماع أو ضرورة حس... وقد قلنا: إنه لَا يجوز إطلَاق إسم على غير موضوعه في اللغة إلّا أن يأتي به نصّ فنقف عنده وندري حينئذ أنه منقول إلى ذلك المعنى الآخر وإلّا فلا.»[4] فالألفاظ وضعها الخالق للتعبير عن ما تقتضيه في اللغة، ليعبّر كل لفظ عن المعنى الذي وضع له، وعلى هذا فهي لَا تخرج عن هذا أبدا. ولذلك ركز على الجانب اللغوي معتبرا إياه مفتاحا ضروريا لحل لكل إشكال، وما دام أنه لا علم لنا إلّا ما علّمنا الله، فإنه تعالى إذا شاء نقل اللفظ عن موضعه إلى موضع آخر، فيكون له معنى جديدا تبعا لذلك، لأنه وحده عزوجل الذي يُعيّن أسماءَ ومعاني الأشياء، فمثلا لفظ "الزكاة" يعني لغةً: النماءَ والطهارة والصلاح، لكن الشرع جعله يعني مقدارا ماليا أو صدقة يخرجها المسلم، فتعيّن تحويل اللفظ إلى معناه الجديد هذا وكذلك الصلاة والصيام وغير ذلك.[5]

فأبو محمد يبيح نقل اللغة عن ظاهرها إذا جاء النقل بذلك، والمسوّغ العقلي والمنطقي عنده لذلك، هو أن الله خالق اللغة وله الحق في نسخ وتبديل ما شاء منها أو أن يخرق النظام اللغوي الدّلَالي إذا أراد، كما كان له الحق في خرق الطبيعة بالمعجزات لتأييد الأنبياء والرسل، أما الناس فلَا يجوز لهم ذلك، وقاعدته:﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُم يُسْأَلُونَ﴾.[6]

ومما لاشك فيه ولَا مراء أن طبيعة اللغة، أيّ لغة تحتّم على مستخدمها كي يصل إلى المعاني الصحيحة للألفاظ، أن يتناول اللفظة أو الجملة أو العبارة كاملة غير مجزأة، فإذا أخذنا جزءا من كلمة أو بعضا من جملة أو من عبارة دون بعضها

---

[1]- ابن حزم: "الإحكام..."(١/٤٦٤).

[2]- نفسه.(١/٤٦٤).

[3]-ابن حزم:"الإحكام" (١/٣٣٧) "الرسائل" (٤/٣٠٢) و "الفصل" (١/٣٣٥).

[4]- ابن حزم: "الفصل" (١/٣٣٥-٣٣٦) وأما من استجاز خلاف ذلك فكلامه باطل، مؤداه إبطال الديانة . "الإحكام..." (١/٧٧).

[5]- ابن حزم:"الإحكام..." (١/٣٣٧).

[6]- سورة الأنبياء [الآية ٢٣].

الآخر، فإننا قد نصل إلى معنى مغايرٍ أو مناقضٍ، أو قد لَا نفهم شيئا أصلًا. فلو قلنا مثلا:﴿ وَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾[1] وفصَلناها عما بعدها، فإن معناها يصبح وعيدا لكل مُصلٍّ، وفيها نهي عن الصلاة، ولكن باستكمال سياق النص القرآني -الآية- سيتضح المعنى الحقيقي لها، وهذا هو الذي أوقع البعض في الوهم والغلط عند بتْرهم للكلمات أو الجمل والعبارات من سياقها وإطارها العام. وهكذا بعدما طبّق أبو محمد التحليل اللغوي المنطقي، إنتهى إلى رفض القياس والتأويل في اللغة، لأنها عنده توقيفية. ومعنى ذلك أنها موقوفة من عند الله، ومحددة للتعبير عن معانٍ ثابتة وواحدة في كل اللغات. « المعاني في جميع اللغات واحدة لَا تختلف، وإنما تختلف الأسماء فقط، والأسماء هي الأصوات الظاهرة.»[2] ومن ثمة فإن اختلاف اللغات والألفاظ الواردة فيها لا يقود إلى أي اختلاف في المعاني، لأن اللغة تتأسس على المسميات ذاتها، ولهذا رفض التأويل لكونه غير منضبط -الهيرمينوطيقا-.« ونحن لَا نقول بالتأويل أصلًا إلّا أن يوجب القول به نص آخر أو إجماع أو ضرورة حسّ ولَا مزيد، فمن ادعى تأويلًا بلَا برهان فقد ادعى ما لَا يصح... ودعواه باطلة.»[3]

وهذا الإتجاه الطاغي على ابن حزم المنطقي، اتجاه لَا يفصل الفكر عن اللغة، بل ينظر إلى العمليات الفكرية المنطقية على أنهاعمليات لغوية، وإن تركيزه على الجانب اللغوي كان بهدف حل أي إشكال قائم في مختلف العلوم، خاصة في الفقه والأصول والكلَام، وسائر العلوم الإسلَامية. لكننا مع ذلك نتساءل: لماذا يتمسك أبو محمد بالظاهر إلى هذا الحد؟.

إن الجواب عن ذلك في نظري، هو أن الظاهر عند ابن حزم هو النص نفسه، وليس رتبة أقل أو أكثر يقينا منه، فهو الذي يحفظ للُّغة هوّيتها وثباتها، أي تداولها الثابت بين الجميع، لأن اللغة واحدة لدى العالِم والجاهل، الخاصّ والعام، المثقف الموسوعي والأمّي أو محدود التعليم وغيرهم، ولكونها من عند الله فقد وجب على الجميع الإنصياع والإنقياد لها، واستخدامها والتفكير بها للوصول إلى معرفة الأشياء على حقيقتها، ولكونها ظاهرٌ لَا خفاء فيه ولَا باطن له، لذا فإنه لَا يجوز صرف الألفاظ عن ظاهرها أو عن معانيها الظاهرة بالتأويل أو القياس والتعليل، لأن البلية ستأتي من هذا الجانب.[4] ولعل المحْدَثين قد اهتدوا إلى حل لهذه المشكلة العويصة، بوضع المعاجم الفلسفية والزراعية والطبّية ونحوها.[5] وتجدر الإشارة هنا إلى أن الإعتناء بالمعنى، نجده المحور الذي دارت حوله رحى الفلسفة المعاصرة.« إذ أن فكرة المعنى لم تشغل **الفلسفة التحليلية** فحسب، بل شغلت أيضا **الفينومينولوجية والبرغماتية والبنيوية** وغيرها، ولهذا ظهرت تصنيفات عديدة حول فكرة المعنى. »[6]

وهنالك مسألة لغوية هامة أشار إليها ابن حزم، وهي علاقة الإسم بالزمان:« الإسم صوت موضوع باتفاق لَا يدل على زمان معين... وقولك: "بعير" لَا يدلّ على زمان معين، لَا حال ولَا ماض ولَا مستقبل...»[7] والمراد بذلك أن ألفاظ اللغة ليست عرضة للتغيير الدلَالي، والزمن ليس فيصلا في تضييق أو توسيع أو تحديد وضبط دلَالَات الألفاظ، بل قد تتدخل عوامل أخرى في هذا الأمر. أي أنه قد يتسع معنى اللفظ وقد يضيق، وهذا يحدث أحيانا باتفاق واصطلَاح أهل اللغة، كاتفاق العرب

---

[1]- سورة الماعون [الآية ٤].

[2]- ابن حزم:"الرسائل" (١٠٧/٤).

[3]- نفسه.(١٠٠/٣).

[4]- ابن حزم :"الرسائل" (١٦٢/٤) و "الإحكام... "(٣٣/١). وينظر: سالم يفوت:"ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس"(ص.١١٩).

[5]- عبد اللطيف شرارة: "ابن حزم رائد الفكر الإسلامي" منشورات المكتب التجاري، بيروت ، د.ت.ط. (ص.٩٠).

[6]- صلاح إسماعيل :" فلسفة اللغة والمنطق – دراسة في فلسفة كواين –" دار المعارف ، القاهرة ، ط.١٩٩٥م (ص.١٧٦).

[7]- ابن حزم :"الرسائل "(١٨٧/٤).

على أن سمّت الحيوان الطويل العنق، الأحدب الظهر، العالي القوائم، القصير الذنب: "بعيرا"، واتفاقُ العجم على أن سمّته باسم آخر؛ وكل تلك الأسماء دالة على الحيوان الذي ذكرناه دلَالة واحدة، وهكذا كل مسمى وضع له إسم. وهو ما أشار إليه ابن سينا بمصطلح التواطؤ اللغوي.[1] فالدلَالة تعني استمرار الإستعمال المتعارف عليه، بسبب رضا المتخاطبين به، والمراد من ذلك أن الأسماء أو الألفاظ يجب أن تحتفظ بمعانيها الثابتة نصّا، وبمدلولاتها المتعارف عليها اصطلاحا، حتى لَا يقع اختلال في التفكير أو عدم اتفاق بين الناس[2] مما قد ينجرُّ عنه فساد في التصور والتفكير والإستدلَال. ولعل ذلك أيضا ناجم عن افتقار التحليل اللغوي لقواعد ومبادئ المنطق، واللفظ أو الإسم لَا يجزّأ، لأنه إذا جُزِّئ لم يدلّ على أيّ معنى.« الإسم صوت موضوع باتفاق... وإنْ فُرِّقت أجزاؤه لم تدل على شيء من معناه... وقد ظن قوم جهّال أن من الأسماء ما يدل شيء من أجزائه على شيء من معناه، كقولك:"عبد الله"، فإنّ "عبدا" يدل على معنى... غير المعنى الذي يدل عليه "عبد الله"، أي أنه لَا يدل على المعنى الذي قصد بتسمية الرجل"عبد الله".»[3] أي أن اسم "عبد الله" إسم لذاته، فلَا توجد للفظة:"عبد" للفظة:"عبد" من حيث هي جزء من "عبد الله" دلَالة على شيء البتة. وحيث أن الدال بلفظة "عبد الله" على هذا النحو، لَا يدل على العبد على انفراده في هذا الموضع بشيء أصلًا. لأنه جزءُ لفظٍ، فلَا يتوقع أن يدلّ بانفراده على أحد أجزائه حتى يأتي اللفظ المركب بتمامه، ليلتئم به كمال اللفظ وتكتمل به الدلَالة المرادة، فيدل مجموع اللفظ على معنى ما، ولَا يدلّ جزؤه على شيءٍ من معناه، من حيث هو جزء له؛ وهو أيضا ما نبّه إليه ابن سينا (ت٤٢٨هـ) حين فرّق بين اللفظ المركّب واللفظ البسيط.[4] فلَا غرو إذن أن نجد ابن حزم يشدّد على ضرورة استخدام الألفاظ ليعلم السامع ما يريده المتكلم، وإلّا فقدت اللغة قيمتها وأهميتها.« والمعلوم بأول العقل أن اللفظ يفهم منه معناه لَا بعض معناه، ولَا شيء ليس من معناه، ولذلك وُضعت اللغات ليفهم من الألفاظ معانيها.»[5] فهذه هي حقيقة البيان التي ينشدها أبو محمد، ولا مندوحة بعدئذ أن يكون حديثة عن أنواع الألفاظ. إذ اللغة عنده تنقسم إلى ألفاظ تدل على معان، وأخرى لَا تدل على أي معنى، وهذا الذي لَا يدل على أي معنى لَا وجه للإستعمال به لأنه لَا يحصل لنا منه فائدة، ويلزم عنه تجاوز هذه الألفاظ أو الأسماء، لأنه لَا معاني ولَا تسميات لها. وهذا مثل:"الغول" و"العنقاء" و"النّسناس" وجميع الخرافات، كما لَا يلزم أن يكون مَنْ إسمه "عبد الله" أن يكون عابدا لله حقيقة.[6] ويبدو أننا إزاء نمطَيْن من المعرفة، إحداهما الأسماء أو الألفاظ ذات الوظيفة المعرفية (cognitive) وتقوم فيها اللغة بوصف أشياء واقعية، لأن فيها إخباراً عن هذه الكائنات الموجودة، ووظيفة غير معرفية(non-cognitive) وتندرج تحتها الكائنات أو الأشياء اللّاموجودة. فالتسمية هي إشارة أو رمز دال على شيء ما، وأما الإسم فوظيفته أن يفصل المعاني بعضها عن بعض، ولَاشيء سوى ذلك، وكلاهما لَا يقدّم معنى اللفظ ولَا مدلوله، لأنه ليس لهما سوى وظيفة إشاريّة رمزية، بخلَاف المسمى الذي ترتبط به المعاني التي هي إما أعيان قائمة أو ذوات ثابتة. أما إذا لم يكن أو لم يوجد مسمى، فلَا معنى ولَا مدلول له بل هو في حكم المعدوم.« إن كل إسم ينطق به، ويوجد ملفوظا أو مكتوبا فإنه ضرورة لَابد له من أحد

---

[1]- "الإسم: لفظة دالة بتواطؤ مجردة من الزمان ." ابن سينا:"العبارة" تحقيق:محمود الخضري،الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ط ١٩٧٠م (ص.٣-٤-٧).

[2]- إن هذا الكلام يذكّرنا بمبادئ العقل، التي تؤكد على ضرورة اتفاق الفكر مع ذاته، وكذلك اتفاقه مع العالم الخارجي، لإزالة التناقض بينهما.

[3]- ابن حزم:"الرسائل"(١٨٧/٤).

[4]- ابن سينا :"العبارة " (ص.٨-٩).

[5]- ابن حزم:"الرسائل" (٢٧٧/٤)"ولو لم يكن لكل معنى اسم منفرد به لما صحَّ البيان أبدا...والمراد باللغة إنما هو الإفهام." "الإحكام" (٣٣٦/١).

[6] ابن حزم: "الفصل"(١٨٥/٣) و "الرسائل"(١٠٤/٤-١٨٨) و "الإحكام"(٩٨/١). فهذه الألفاظ وإن كانت دالة إلاّ أنه لَا معنى لها، وإنما يراد من خلالها ترك أثرٍ ما على النفس ، فهي وإن كانت أسماءً إلا أنها لَا تدل على مسمى بعينه.

وجهين: إما أن يكون له مسمى فهو موجود وهو شيء حينئذ، وإن كان ليس له مسمى فإخبارنا بالمعدوم... فصحّ أن المعدوم لَا يُخبَر عنه...»[1] ويستدل ابن حزم على ذلك بلفظ:"العنقاء" الذي تشير تسميته لشيء ما، ولكن مع ذلك لَا مسمى "للعنقاء" ونحوها من الأسماء والألفاظ التي لَا حقيقة لها.« وتمنّينا للمريض الصحة إنما هو إخبار عن ذلك الإسم الموجود وأنه ليس له مسمى ولَا تحته شيء.»[2] وكذلك من ادّعى الغول والعنقاء وجميع الخرافات.[3] وكأنه يشير إلى أن الشيء لَا يمكن أن يكون موجودا وظاهرا بالنسبة لنا إلّا إذا كان له مسمّى ومعنى، أو هو كائن فعليّ وموجود حقيقي، وبهذا نعرفه وندرك هويّته، وإلّا كان مجرد فكرة مثالية أو صورة خيالية لَا حقيقة له؛ وبالمقابل يشير ابن حزم إلى وجود كائنات أو معان بلَا ألفاظ ولَا أسماء دالة عليها، في إشارة واضحة منه إلى عجز اللغة أحيانا عن أن تجاري الفكر. حيث يكون المعنى أرحب وأوسع مجالًا، في حين تضيق اللغة على أن توقع على كل نوع إسما تفرده به.[4] ويضرب ابن حزم على ذلك مثالًا عن الأنواع الكثيرة من الحيوانات والحشرات التي تنشأ عن التعفّن والرطوبة، ومع أنها معلومة لنا بالرؤية، لكن لَا تُعلم لها أسماءٌ؛ بل إن ابن حزم نفسه يذهب أحيانا إلى أنه«... لو كانت اللغة أوسع حتى يكون لكل معنى في العالم إسم مختص به، لكان أبلغ للفهم وأجلى للشك وأقرب للبيان.»[5] وفي ذلك تأكيد منه على عدم مجاراة الألفاظ والدوالّ للمعاني والمدلولَات. وهو أيضا ما نجده عند بعض اللغويين كالسيوطي(ت.٩١١هـ) الذي يذهب إلى أنه:« ليس لكل معنى لفظ؛ بل المعاني كثيرة وغير متناهية ولذا لَا يجب أن يكون لكل معنى لفظ، لأن المعاني التي يمكن أن تعقل لَا تتناهى والألفاظ متناهية.»[6]

استنتاج :

وبعد: فهذه بعض آراء الرجل وفلسفته في اللغة وعلومها، والحقّ أن أفكاره هذه كان من الممكن أن تُثمر لو أنها وجدت من يستثمرها وينتفع بها.[7] حيث كانت أسساً يمكن أن يتّكئ عليها من يُقَعِّد لنحوٍ ظاهريٍّ في أمر فسادِ العلل.[8] والحقيقة التي يجب أن تعلن هي: أن أبا محمد تعامل مع اللغة « بفهم شمولي حيث استوعب المستوى الصوتي والمستوى النحوي والمستوى الصرفي والمستوى الدلّالي، ومستوى اللغة على اللغة أو ما يسميه باب:"القول على القول"[9] وله في ذلك آراء قيمة تجعل من عمله على هذا الصعيد عملا متميزا بالأصالة والإثارة ... مما يرتئ عن فهم دقيق للغة.»[10]

---

[1])- ابن حزم:"الفصل"(١٨٥/٣).

[2])- نفسه.

[3])- ابن حزم "الإحكام..."(٩٨/١).

[4])- ابن حزم: "رسالة التقريب لحد المنطق"ضمن"الرسائل" (١٠٧/٤).

[5])- ابن حزم:"رسالة مراتب العلوم"ضمن"الرسائل" (٦٧/٤).

[6])- السيوطي: "المزهر في اللغة" ضبط وتصحيح : محمد أحمد جاد المولى وآخرين ، دار التراث، القاهرة ، د.ت.ط. (٤١/١).

[7])- حاول ابن مضاء القرطبي(ت.٥٩٢هـ) رفض العلل النحوية. " وأراد الزيادة على ما قاله ابن حزم فلم يستطع أن يصنع شيئا؛ بل حاد عن الصواب ." سعيد الأفغاني:" نظرات في اللغة عند ابن حزم" هامش(ص.٤٦) ومع ذلك اعتبرت نظرية العامل لابن مضّاء في النحو هامة جدا . سليمان ياقوت:"ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم" (ص.٦١-١٠٨)

[8])- ينظر: مصطفى عليان، مقال: "ابن حزم والنحو الظاهري"(ص.٥٣) وسعيد الأفغاني:" نظرات في اللغة عند ابن حزم"(ص.٥١).

[9])- ابن حزم: "الرسائل" (١٩٠/٤).

[10])- أنور خالد الزعبي:"ظاهرية ابن حزم الأندلسي" المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان ، ط١، ١٩٩٦م (ص.١٢٥).

كما أنه اعتنى باللغة من جميع جوانبها، بألفاظها وتراكيبها -نحوها- وبلَاغتها وسُبُل الإشتقاق منها، ومقارنتها باللغات الأخرى[1] فكان ذلك من أبرز ما ميّز المنهج والمعرفة عند ابن حزم الظاهري. وإذا كان ابن حزم لغويا عميق النظر، فإن عنايته عنايته باللغة كانت بالغة من جميع جوانبها، حيث أحلها المكانة الرئيسية في مجال اهتمامه؛ ولكونه ظاهريا فقد اعتمد على النصوص، بل إن مذهبه الظاهري ألزمه الإعتناء باللغة لأنها الوسيلة الأولى لفهم المعاني، وتكاد الكلمة تجمع على أن أجمل لغة كُتِبت بها الشريعة وضوحا وإشراقا هي لغة ابن حزم، يتضح هذا لمن قرأ كتبه في الأصول والفقه وغيرهما.[2]

ولَاشك أن منهجه في تحليل اللغة دقيق، وفهمه وضبطه لها عميق، حين قام بمحاولة فريدة لم يسبق إليها، وهي اعتباره أن النص له دلَالة ظاهرة يفهمها القارئ ولو كان ذا لغة بسيطة، وعليه فإنه لَا تكلّف ولَا تعمق ولَا تأويل في دين الله، فكل ذلك جليّ واضح.« واعلموا أن دين الله تعالى ظاهر لَا باطن فيه، وجهر لَا سرّ تحته.»[3] وإنه على الرغم من أن دين الله واضح واضح تمام الوضوح، إلّا أن عقول بعض الناس ليست واضحة، فلَا تبصر الحقيقة ولَا تكاد تصل إليها، ومن ثمة يحدث التعارض والإختلَاف؛ ومما نبّه إليه أيضا ابن حزم قبل غيره، تنبيهه إلى كيفية زوال واضمحلال اللغة التي:« يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم، أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم فإنّما يقيّد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها... وأما من تلفت دولتهم وغلب عليهم عدوهم... فمضمون منهم موت الخواطر وربما كان ذلك سببا لذهاب لغتهم وعلومهم، هذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل ضرورة ...»[4]

إنه استشراف للمستقبل ونظرة في عمق الزمن اللاحق، حيث الغزو الثقافي والفكري والإحتلَال العسكري، والهجرة إلى الدول الأخرى مما هو واقع الآن، حتى غدت اللغة العربية غريبة بين أهلها. ولقد جاء تحليل ابن حزم للّغة حاسما، لينشئ رباطا قائما بين اللغة والنصوص والتصورات لصالح العناية بالظاهر. وإذا كان من غير الممكن أن نستوعب في هذا المبحث عامة التحليل اللغوي الحزمي، فلعل في الإشارة إلى ما قدّمه من أفكار في هذا المجال، تعطينا صورة واضحة عن كيفية تناوله لمسألة اللغة، وتقسيم الألفاظ والمفردات ومسألة النطق وعلاقة اللفظ بالمعنى، والإسم بالمسمى وبالتسمية؛ إضافة إلى استعراضه قضية أصل اللغة ونشأتها، وكذا صلتها بالمجتمع والحكم والسياسة والتعليم والوظائف المعيشية التي يقوم بها الإنسان، ونشأة العلوم وسائر المعارف والصنائع، والقيمة التي تكتسيها اللغة في حياة الإنسان لكونها ظاهرة إنسانية.

قائمة المصادر و المراجع:

١. **ابن حزم** :"الإحكام في أصول الأحكام" تحقيق:محمد محمد تامر،دار الكتب العلمية،بيروت ،ط١، ٢٠٠٤م

٢. "الرسائل" تحقيق: إحسان عباس ،نشر المؤسسة العربية للنشر ،بيروت (ط٢، ١٩٨٣م-١٩٨٧م)

٣. :"الأصول والفروع" تحقيق: عاطف العراقي وآخرين،مكتبة الثقافة الدينية ،القاهرة ،ط١، ٢٠٠٥م.

٤. **أنور خالد الزعبي**: "ظاهرية ابن حزم الأندلسي" المعهد العالمي للفكر الإسلامي،عمان ،ط١، ١٩٩٦م

[1]- يبدو أن ابن حزم يتقن اللغتين: العبرانية والسريانية. ينظر:"الإحكام..." (٢٩/١) وأضاف سعيد الأفغاني اللاتينية: "نظرات..."(ص.٣٥).

[2] سعيد الأفغاني:"نظرات في اللغة عند ابن حزم ..." (ص.٤١) و عبد الكريم خليفة : " ابن حزم "(ص.١٠٥-١٠٦) وعمر فروخ :"ابن حزم الكبير"(ص.٦٤).

[3] ابن حزم: "الفصل..."(٣٢٠/١).

[4] ابن حزم: "الإحكام"(٢٩/١-٣٠).

٥. .**سالم يفوت**:"ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس" المركز الثقافي الدار البيضاء، المغرب،ط١٩٨٦.

٦. .**سعيد الأفغاني** : "نظرات في اللغة عند ابن حزم الأندلسي" دار الفكر، بيروت ،ط١٩٦٩م.

٧. .**عبد الكريم خليفة**: "ابن حزم الأندلسي حياته وأدبه" الدار العربية للنشر ، بيروت ، د.ت.ط.

٨. .**عبد اللطيف شرارة**:"ابن حزم رائد الفكر الإسلامي" منشورات المكتب التجاري ،بيروت ،د.ت.ط.

٩. .**عمر فروخ**:"ابن حزم الكبير" دار لبنان للنشر ،بيروت ،ط١٩٨٠م.